وقفات مع سورة البقرة

من الاستخلاف إلى سمعنا وأطعنا

دستور بناء الإنسان والأمة والدولة

RAMADAN Feb 2026

DRAFT

DRAFT

DRAFT

فهرس المحتويات

المقدمة

- سياق النزول وبداية المشروع المدني
- من ترسيخ العقيدة إلى تأسيس الأمة
- من ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ إلى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

أولًا: مطلع السورة ومنهج التصنيف البشري (1–29)

- معيار الموقف من الوحي
- المؤمنون والكافرون والمنافقون
- المثلان الناري والمائي
- الأمثال ككاشف لحقيقة القلوب

ثانيًا: الاستخلاف وقصة آدم (30–39)

- معنى الاستخلاف وأساس التكريم
- الفرق بين التوبة والاستكبار
- قاعدة النجاة باتباع الهدى

ثالثًا: تجربة بني إسرائيل والانحراف عن مقتضى العهد (40–123)

- النعمة والعهد والانحراف
- أنماط السقوط بعد التمكين
- الاستكبار والتحايل بدل الامتثال
- التاريخ كمرآة للأمة الجديدة

رابعًا: ملة إبراهيم والمرجعية العقدية للأمة (124–141)

- الإمامة ثمرة الابتلاء
- سقوط الاحتكار العِرقي
- بناء البيت وتأسيس الهوية
- مسؤولية العمل لا الانتساب

خامسًا: تحويل القبلة وميلاد الاستقلال العقدي (142–150)

- القبلة اختبار للاتباع
- إعلان استقلال الهوية
- أمة وسط وشهادة على الناس

سادسًا: من العقيدة إلى التشريع... بناء الأمة من الداخل (151–179)

- التزكية والذكر والصبر
- الابتلاء طريق الثبات
- القصاص وتحويل الهوية إلى نظام عدل

سابعًا: الصيام: مدرسة التقوى (183–187)

- ضبط الإرادة وبناء التقوى
- التوازن بين التكليف والرحمة
- القرب من الله واحترام حدوده

ثامنًا: الحج: مشهد الأمة الواحدة (196–203)

- العودة إلى الأصل الإبراهيمي
- وحدة الاتجاه ووحدة القلب
- العبادة الجامعة والهوية الجماعية

تاسعًا :آية الكرسي... قمة البناء العقدي (255)
خاتمة السورة... كمال التسليم..(285–286)

- كمال الله وقيوميته
- تثبيت التصور العقدي للأمة
- الإيمان الشامل
- ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾
- عدل التكليف ومسؤولية الفرد

عاشرًا: الخاتمة: معالم الخريطة التشريعية في السورة

DRAFT

المقدمة

نزلت سورة البقرة في المدينة المنورة بعد الهجرة، في المرحلة التي انتقل فيها الإسلام من طور الاستضعاف الفردي في مكة إلى طور بناء المجتمع والدولة في المدينة. وهي من أوائل ما نزل في العهد المدني، واستمر نزولها زمنًا طويلًا، حتى إن بعض آياتها كان من آخر ما نزل، مما جعلها سورةً جامعة رافقت تأسيس الأمة خطوةً خطوة.

في مكة كان التركيز على ترسيخ العقيدة وتثبيت التوحيد في القلوب، أما في المدينة فقد بدأ بناء الأمة: أمة لها هوية مستقلة، ونظام تشريعي، واقتصاد منضبط، وقوة تحميها، ومجتمع تحكمه العدالة. ولهذا كانت سورة البقرة أطول سور القرآن، لا لطولٍ لفظي، بل لطول مشروعها الحضاري.

تبدأ السورة بإعلان المرجعية العليا: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وتختم بإعلان الطاعة الكاملة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. وبين البداية والنهاية تبني الإنسان، وتنظم المجتمع، وتؤسس الدولة، وتربط الأرض بالسماء.

وسنرى في خاتمة هذه الوقفات كيف جمعت سورة البقرة بين بناء العقيدة، وتأسيس الهوية، ووضع المنظومة التشريعية الكاملة لبناء الأمة".

أولًا: مطلع السورة ومنهج التصنيف البشري (1–29)

معيار الوجود: الموقف من الوحي

افتُتحت سورة البقرة بالحروف المقطعة ﴿الم﴾، إيذانًا ببدء خطابٍ عظيم، ثم جاء الإعلان الحاسم: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. جاء اسم الإشارة البعيد **«ذلك»** تعظيمًا لشأن الكتاب ورفعًا لقدره، وكأن القرآن يُعرِّف بنفسه قبل أن يشرع في تفصيل منهجه. فالمرجعية منذ اللحظة الأولى واضحة: هذا كتاب لا شك فيه، وهو مصدر الهداية، لكن هدايته لا تُنال إلا بقلبٍ متقٍ مستعدٍّ للتلقي.

ثم قُسِّم الناس أمام هذا الكتاب إلى ثلاثة نماذج كبرى، لا بحسب أسمائهم ولا أنسابهم، بل بحسب موقفهم من الوحي.

النموذج الأول هم المؤمنون، الذين آمنوا بالغيب، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم الله، وأيقنوا بالآخرة. هؤلاء استقبلوا الكتاب بالتسليم، فكانوا على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون. إيمانهم لم يكن دعوى، بل التزامًا ظاهرًا وباطنًا؛ إيمانًا في القلب، وعبادةً في الجوارح، وثقةً بالمآل.

أما النموذج الثاني فهم الكافرون الذين خُتم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجُعل على أبصارهم غشاوة. ليس لأن البيان لم يصلهم، بل <u>لأن الإعراض المتكرر أورثهم انغلاقًا داخليًا، حتى صار الإنذار وعدمه سواءً عندهم. هنا يُصوَّر الانطفاء الكامل بعد قيام الحجة، حين يُطفأ نور القبول من الداخل</u>.

ثم يأتي النموذج الثالث، وهو أخطرها: **المنافقون**. هؤلاء يُظهرون الإيمان ويُبطنون غيره، يزعمون الإصلاح وهم مفسدون، ويتحركون بين المعسكرين بلا ثبات. خطرهم ليس خارجيًا واضحًا، بل داخلي خفي يهدد البناء من أساسه، ولذلك أطال القرآن في كشف أحوالهم، لأن المرض إذا كان في الداخل كان أشدّ وأدق.

وضُرب لهم مثلان بليغان يكشفان حقيقتهم.

المثل الأول فهو المثل الناري: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. يُصوَّر رجلٌ في ظلمةٍ أوقد نارًا فأضاءت له ما حوله لحظةً، فلما أبصر وانتفع سُلب منه النور فجأة. لم يقل القرآن إن الله أذهب نارهم، بل قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، لأن النار تجمع بين النور والحرارة؛ فأُخذ عنصر الهداية وبقي أثر الاحتراق والاضطراب. ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾، ولم يقل في ظلمة، لأن الظلام ليس حالة واحدة، بل ظلمات متراكبة: ظلمة الشك، وظلمة الشهوة، وظلمة الخوف، وظلمة التردد. ثم جاء الحكم الحاسم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، وهو تصوير للنهاية الداخلية حين يُطفأ الأصل ويُغلق باب الرجوع.

وأما المثل الثاني فهو المثل المائي: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...﴾. المطر حياة للأرض كما أن الوحي حياة للقلوب، لكنهم لا يرونه حياة، بل يرونه ظلماتٍ ورعدًا وبرقًا يخيفهم. كلما أضاء لهم البرق مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا. يتحركون مع الوحي حين يوافق مصالحهم، ويتراجعون حين يطالبهم بالتضحية. إنهم في تذبذب دائم، لا ثبات فيه ولا طمأنينة. المثل الناري يُصوّر انطفاء الجوهر الداخلي بعد أن لاحت فرصة النور، والمثل المائي يُصوّر اضطراب السلوك الظاهري قبل تمام الانغلاق.

ثم جاء التعقيب الإلهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾. فالعبرة ليست بحجم المثال، بل بقدرته على كشف الحقيقة. الأمثال في القرآن ليست زخرفًا بيانيًا، بل موازين تُظهر ما في القلوب وتضع الإنسان أمام نفسه.

وقد جاء هذا التعقيب ردًّا على استهجان قريش واعتراض الكفار، إذ لم تعجبهم هذه الأمثلة، فاستنكروها وتعجّبوا من ذكر البعوضة ونحوها في الخطاب القرآني، فجاء البيان الإلهي ليقرر أن ميزان الحق لا يُقاس بصِغَر المثال أو كِبَره، وإنما بما يحمله من هداية وكشفٍ للواقع.

وبعد هذا العرض الدقيق لأحوال الناس، لم يُغلق الباب، بل جاء النداء العام الشامل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. كأن السورة تقول: إنما كُشفت هذه الأحوال لتحذيرك لا لإقصائك، ولإنقاذك قبل أن ينطفئ نورك. فالذي يتذبذب لا يزال يمكنه الثبات، والذي خاف من الرعد لا يزال يسمع، والذي رأى البرق لا يزال يبصر. قبل أن تصل إلى حال ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، ارجع إلى أصل العبادة، وثبّت جذور النور في قلبك.

وهكذا يكتمل البناء في الآيات (1–29):

تقسيم للناس، ثم تشريح للقلوب، ثم أمثال كاشفة، ثم تعقيب مؤسس، ثم دعوة عامة مفتوحة. إنها بداية تضع الإنسان أمام الحقيقة الأولى: موقفك من الوحي هو الذي يحدد مصيرك.

ثانيًا: الاستخلاف وقصة آدم (30–39)

لماذا نحن في الأرض؟

بعد أن انتهت الآيات الأولى إلى دعوة الناس جميعًا إلى عبادة ربهم، انتقل السياق إلى مشهدٍ علويٍّ عظيم يجيب عن سؤال أعمق: ما حقيقة هذا الإنسان الذي خوطب بالعبادة؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. إنه إعلان الاستخلاف قبل وجود البشر في الأرض، مما يدل على أن وجود الإنسان فيها ليس حادثًا عارضًا ولا نتيجة خطأ، بل هو قدرٌ مقصود وساحة امتحان معدّة سلفًا. فالأرض ميدان التكليف، لا موطن العقوبة.

تساءلت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، ولم يكن سؤالهم اعتراضًا، بل استعلامًا عن الحكمة. فجاء الجواب الإلهي الحاسم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. في هذه الجملة يتقرر أصل عظيم، وهو أن ظاهر الأحداث قد يوحي بالفساد، لكن في باطنها سرٌّ من التكريم والاختيار والقدرة على التوبة والرجوع.

ثم علّم الله آدم الأسماء كلها، فظهر عنصر التفوق الإنساني: العلم. لم يكن الامتياز في القوة، بل في المعرفة. وبهذا تُرسى قاعدة الاستخلاف؛ فعمارة الأرض لا تقوم على البطش، بل على الفهم، ولا على الغلبة، بل على العلم المؤدي إلى الحكمة.

ثم جاء <u>الامتحان الأول</u>، حين أُمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس. وهنا يظهر أول انحراف في تاريخ الخليقة: الاستكبار. قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فكانت معصيته مقرونة بالتعالي، لا بمجرد المخالفة. أما آدم فوقع في الزلة، لكنه لم يستكبر، بل تلقّى من ربه كلمات فتاب عليه. وهنا يتضح الفرق الجوهري بين مسارين: مسار الذنب الذي يعقبه رجوع، ومسار الذنب الذي يعقبه كِبر وإصرار. الخطأ ليس نهاية الطريق، ولكن الاستعلاء على الحق هو الهلاك الحقيقي.

ثم جاء الهبوط إلى الأرض: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾. وليس الهبوط هنا إذلالًا، بل انتقالًا إلى ساحة التكليف التي خُلق الإنسان لها. وأعقب ذلك الوعد الجامع الذي يلخص مسار التاريخ كله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وهنا يعود السياق إلى القاعدة الأولى التي بدأت بها السورة: الموقف من الوحي هو معيار النجاة.

فالإنسان مستخلف، لكن الاستخلاف مشروط باتباع الهدى. والأمن الحقيقي ليس في القوة ولا في الأرض، بل في الالتزام بمنهج السماء. وهكذا يتكامل البناء في هذا المقطع؛ دعوة إلى العبادة، ثم بيان أصل الوجود، ثم تقرير شرط النجاة. فمن اتبع الهدى فلا خوف عليه ولا حزن، ومن أعرض فقد اختار طريق الهلاك.

DRAFT

ثالثًا: تجربة بني إسرائيل والانحراف عن مقتضى العهد (40–123)

يبدأ خطاب بني إسرائيل في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ويمتد حتى الآية (123)، في مقطع طويل مقصود، ليس سردًا تاريخيًا مجردًا، بل عرضًا منهجيًا لتجربة أمةٍ مُكّنت في الأرض، وأُعطيت الكتاب والعلم والآيات، ثم كيف تعاملت مع هذا الاستخلاف. فبعد أن قررت السورة أصل الاستخلاف في قصة آدم، انتقلت إلى عرض نموذجٍ عملي لأمةٍ حملت الكتاب ثم انحرفت في مساره.

يبدأ الخطاب بتذكيرهم بالنعمة والعهد، وكأن الأصل كان الشكر والوفاء، لكن السياق يكشف سلسلة متكررة من الانحرافات. نجّاهم الله من فرعون، وشقّ لهم البحر، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وأنبع لهم الماء من الحجر، وظلّلهم بالغمام، وأرسل فيهم الأنبياء، ورفع قدرهم في زمانهم، وفضّلهم على العالمين في عصرهم. ومع ذلك لم يكن الانحراف حادثًا عارضًا، بل نمطًا متكررًا.

عبدوا العجل بعد أن رأوا الآيات، وطلبوا رؤية الله جهرةً على وجه الاستكبار، ورفضوا دخول الأرض المقدسة خوفًا وجبنًا رغم الوعد بالنصر، واعترضوا على طعام السماء بطلب ما تنبت الأرض، دلالةً على ضعف الشكر واستثقال النعمة. قتلوا الأنبياء بغير حق، وحرّفوا كلام الله من بعد ما عقلوه، وكتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا هذا من عند الله، ولبسوا الحق بالباطل وكتموا ما يعلمون.

أُخذ عليهم الميثاق مرارًا، حتى رُفع الطور فوق رؤوسهم تهديدًا بالالتزام بالعهد، ومع ذلك نقضوا المواثيق. وفي قصة أصحاب السبت تحايلوا على أمر الله، فكان التحايل صورةً من صور التمرد المقنَّع، إذ لم يخالفوا النص ظاهرًا بل التفّوا عليه قصدًا. وفي قصة البقرة التي سُمِّيت بها السورة، تحوّل الامتثال البسيط إلى جدلٍ وتعقيدٍ ومراوغة، حتى صار السؤال وسيلةً للهروب من الطاعة بدل أن يكون طلبًا للبيان.

كما بيّنت الآيات معرفتهم ببعثة النبي ﷺ من كتبهم، ثم جحودهم له حسدًا واستكبارًا، وحرصهم الشديد على الحياة حتى قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، وكأن التعلق بالدنيا صار معيارًا يحكم مواقفهم. وذُكرت قصة هاروت وماروت في سياق بيان انحرافهم في باب العلم حين يُطلب لغير غاية الهداية، فيتحول العلم إلى أداة فتنة بدل أن يكون سبيل إصلاح.

وهكذا يتكرر المشهد: نعمةٌ يتبعها جحود، وعهدٌ يعقبه نقض، وتوبةٌ يعقبها رجوع إلى الانحراف. فالتاريخ هنا ليس أحداثًا متفرقة، بل نمطًا سلوكيًا متكررًا يكشف خللًا في القلب قبل أن يكون خللًا في الواقع.

ومع كل هذا الانحراف، كان الله يفتح باب التوبة، ويجدد العهد، ويذكرهم بنعمته، ويعيد عليهم الخطاب. وهذا يدل على سعة حلمه سبحانه، وعلى أن الانحراف لا يخرج الأمة من دائرة الخطاب ما دام باب التوبة مفتوحًا. لكن الخطورة ليست في وقوع الذنب، بل في الاستكبار بعده، أو التحايل عليه، أو تبريره، أو تحويل الدين إلى هويةٍ مغلقة تخدم الأهواء.

وعند تأمل هذا المقطع يظهر أن الانحراف لم يكن عشوائيًا، بل تكرر ضمن أنماط واضحة. كان هناك انحراف عقدي في أصل التوحيد والتصور، حين عبدوا العجل، وطلبوا رؤية الله على وجه التحدي، وادعوا احتكار الجنة، وحسدوا على فضل الله، وكفروا بالرسول مع علمهم بصفته. وكان هناك انحراف

علمي في التعامل مع الوحي، حين حرّفوا النص، وكتموا الحق، ولبسوا الحق بالباطل، وجادلوا بعد قيام الحجة. وكان هناك فساد أخلاقي تمثل في قسوة القلوب، وحب الدنيا، والجبن عند مواجهة التكليف، وكثرة الجدل والمراوغة. وكان هناك تمرد عملي مباشر في مخالفة الأمر، كعبادة العجل، والتحايل في السبت، ورفض دخول الأرض المقدسة، ونقض المواثيق. ثم تطور الأمر إلى خلل مؤسسي واجتماعي حين صار قتل الأنبياء واقعًا، وصار التناقض في الالتزام بالعهد منهجًا عامًا.

ومن هنا تتضح الملاحظة المنهجية الكبرى: مشكلة بني إسرائيل لم تكن نقص علم، ولا قلة آيات، ولا ضعف بيان، بل كانت في الاستكبار بعد العلم، والتحايل بدل الامتثال، وتقديم الهوى على النص، والتعلق بالدنيا بدل الآخرة. فالخلل لم يكن في النص، بل في القلب.

ومن هنا يبرز سؤالٌ دلاليٌّ مهم: لماذا سُمِّيت هذه السورة العظيمة بسورة البقرة؟ مع أن موضوعاتها تمتد من الاستخلاف إلى التشريع إلى بناء الأمة؟ والجواب يظهر من داخل السياق نفسه؛ فحادثة البقرة لم تكن مجرد قصة عابرة، بل نموذجًا كاشفًا لمنهجٍ في التعامل مع أمر الله. كان المطلوب أمرًا يسيرًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، لكن الامتثال البسيط تحوّل إلى سلسلة من الأسئلة والمجادلات، لا طلبًا للبيان، بل مراوغةً وتأجيلًا واستثقالًا للتكليف. فصارت البقرة رمزًا لمنهجٍ يقوم على الجدل بدل التسليم، والتعقيد بدل الامتثال، والتحايل بدل الطاعة. ومن هنا كان اسم السورة عنوانًا منهجيًا، لا تفصيليًا؛ إذ لخصت قصة البقرة جوهر الخلل في تجربة بني إسرائيل: مشكلة لم تكن في وضوح الأمر، بل في طريقة الاستجابة له.

ثم يعود السياق ليربط هذا العرض بأصل القضية التي قررها في قصة آدم. فقد قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ثم بيّن أن الهداية هي معيار النجاة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. والآن يعرض نموذجًا لأمةٍ مُكّنت ومارست الاستخلاف فعلًا، لكنها حين غلبتها الشهوة، أو سيطر عليها الحسد، أو استكبرت على النص، أو تحايلت على الحكم، انحرفت عن مسارها.

فالفرق بين آدم وإبليس كان في طريقة التعامل مع الخطأ؛ آدم أذنب فتاب، وإبليس عصى فاستكبر. وفي تاريخ بني إسرائيل يتكرّر المشهد: فيهم من أناب، وفيهم من استكبر وحرّف وكتم. ومن هنا يتحول التاريخ إلى مرآة، لا إلى حكاية. والسورة لا تسرد هذه الوقائع لإدانة قوم مضوا، بل لتخاطب الأمة الحاملة للكتاب بعدهم: أنتم الآن موضع الاستخلاف، فإن وقعتم في أحد هذه الأبواب ولم تُصلحوا قلوبكم، فإن السنن لا تتغير.

وهكذا يكتمل البناء في هذا المقطع: تعريفٌ بالإنسان ووظيفته، وبيانٌ لطبيعة الذنب ومسار النجاة، ثم عرضٌ لنموذج أمةٍ مُكّنت فاختُبرت فسقطت حين ضعف تسليمها. فالخلافة ليست تشريفًا مجردًا، بل مسؤولية، والهداية ليست معلومة تُحفظ، بل طريق يُتبع، والنجاة ليست بالانتساب، بل بالاستجابة الصادقة.

DRAFT

رابعًا: ملة إبراهيم والمرجعية العقدية للأمة (124–141)

من نقد التاريخ إلى تأسيس المرجعية

بعد أن عرضت السورة تجربة بني إسرائيل بكل ما فيها من نعمٍ وانحرافات، لم تنتقل مباشرة إلى إعلان تحويل القبلة، بل توقفت عند أصلٍ أعمق وأقدم: ملة إبراهيم عليه السلام. وكأن السياق يقول: قبل أن تنتقل القيادة من أمة إلى أمة، لا بد أن يُعاد تعريف الامتداد الحقيقي للإيمان، وأن تُحسم مسألة المرجعية من جذورها.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾. **بدأت القصة بالابتلاء، لا بالاصطفاء**، ليتقرر منذ اللحظة الأولى أن الإمامة ليست لقبًا موروثًا، بل نتيجة وفاء. فلما أتمّ إبراهيم ما كُلّف به، جاء التكريم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. هنا يُرسَّخ مبدأٌ حاسم في بناء الأمم: القيادة في الأرض لا تقوم على العِرق، ولا على التاريخ، ولا على مجرد الانتساب، بل على تحقيق شروط العهد.

ولما سأل إبراهيم أن تكون الإمامة في ذريته، جاء الجواب الإلهي الفاصل: **﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.** فانقطع الاحتكار العِرقي، وسقط الادعاء بأن مجرد الانتماء يكفي. العهد الإلهي مشروط بالعدل والاستقامة، لا بالاسم ولا بالقرابة. بهذا يُغلق باب التعصب، ويُفتح باب المسؤولية.

ثم يُذكر مشهد بناء البيت: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. لم يكن البناء حجارةً تُرصّ، بل تأسيسًا لعقيدة تُرفع. ولذلك اقترن العمل بالدعاء: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾. فإبراهيم يعمل ويجتهد، لكنه يخاف عدم القبول. هنا يظهر الفرق الجوهري بين منهج الخضوع ومنهج الاستعلاء؛ فالمؤمن يجمع بين العمل والخشية، وبين الإنجاز والتواضع.

ثم دعا إبراهيم أن يُبعث في هذه الأمة رسولٌ منهم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾. فكأن بعثة محمد ﷺ ليست حدثًا طارئًا في التاريخ، بل امتداد لدعوة إبراهيم نفسها. فالأمة الجديدة ليست قطيعةً مع الماضي، بل عودة إلى الأصل الأول، إلى التوحيد الخالص الذي قام عليه البيت الحرام.

ثم يأتي التصحيح الأعظم للمفاهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾. هنا تُفكك السورة دعوى الاحتكار الديني، وتُعيد تعريف الهوية على أساس التوحيد، لا على أساس التسميات الطائفية. فإبراهيم أسبق من هذه الأسماء، وأصل الملة هو الاستسلام لله، لا الانتماء لجماعة.

وتُذكر وصيته لبنيه، ووصية يعقوب من بعده: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. فالهوية الحقيقية ليست تاريخًا يُروى، بل تسليمًا يُعاش حتى الموت. الاصطفاء ليس امتيازًا، بل أمانة تستمر ما دام القلب ثابتًا.

ثم يأتي الفصل الحاسم الذي يقطع التعلّق المرضي بالماضي: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾. فلا وراثة في النجاة، ولا تحميل لأمةٍ وزر أمة، ولا انتفاع بتاريخٍ دون عمل. هنا ينتهي الجدل النظري، ويبدأ الامتحان العملي.

بهذا المقطع تنتقل السورة من نقد انحراف بني إسرائيل إلى تأسيس المرجعية العقدية الجديدة. فالأمة التي ستتسلّم القيادة ليست أمة قطيعة، بل أمة امتدادٍ لإبراهيم، لكنها امتداد في الإيمان لا في العِرق، في التوحيد لا في الاسم، في الوفاء بالعهد لا في ادعاء الاحتكار.

وهنا يتهيأ المشهد لما سيأتي بعد قليل: إعلان التحول الظاهري في القبلة. لكن قبل أن تتحول الجهة، كان لا بد أن تُحسم المرجعية. فالقبلة ليست مجرد اتجاه جغرافي، بل إعلان استقلال الهوية العقدية، وترسيخ أن الامتداد الحقيقي ليس في التاريخ، بل في الاستجابة للهداية.

خامسًا: تحويل القبلة وميلاد الاستقلال العقدي (142–150)

إعلان الاستقلال وبداية الاختبار

بعد أن حُسمت المرجعية العقدية بالرجوع إلى ملة إبراهيم، جاء التحول الظاهري الذي سيُجسد هذا الحسم في الواقع: تحويل القبلة. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾. بدأ السياق بذكر الاعتراض قبل وقوع الحدث، ليقرر أن كل تحولٍ حقيقي في مسار أمة سيواجه تساؤلًا وتشكيكًا. والسفه هنا ليس جهلًا عقليًا، بل خفة في ميزان الفهم؛ إذ ينظرون إلى الاتجاه الظاهري، ولا يدركون المعنى الكامن وراءه.

ثم جاء الجواب المبدئي الذي يعلو فوق الجغرافيا: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾. فالقبلة ليست تقديسًا لجهة، بل امتثالًا لأمر. الجهات كلها ملك لله، والمعنى ليس في الحجر، بل في الطاعة. ثم يُقرر أصل الهوية الجديدة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أمةً شاهدة على الناس، متوازنة في منهجها، مستقلة في مرجعيتها، لا تابعةً لأمةٍ قبلها ولا ذائبةً فيها.

ويُبيّن الله أن القبلة الأولى لم تكن عبثًا، بل كانت اختبارًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. فالقضية ليست في الاتجاه، بل في الاستجابة. الامتحان ليس في الفهم العقلي وحده، بل في التسليم العملي. وهنا يظهر الفارق بين من يتبع النص لأنه حق، ومن يتبعه ما دام يوافق مألوفه.

ثم جاء التحول الفعلي: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. إنها عودة إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم، وتأكيد أن الامتداد الحقيقي هو امتداد التوحيد الأول. فالقبلة الجديدة ليست انفصالًا عن إبراهيم، بل عودة إليه، وليست خروجًا من التاريخ، بل تصحيح لمساره.

ويُكرر الأمر بتأكيد: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، ليصير الاتجاه واحدًا في الجغرافيا كما هو واحد في العقيدة. وهنا يتجسد معنى الأمة؛ فكما توحدت مرجعيتها، توحدت وجهتها، وصار لها مركزٌ واضح يجمعها.

ويؤكد السياق أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا التحول حق من ربهم، لكن العلم وحده لا يكفي إن لم يُصحبه خضوع: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾. وكأن السورة تعيد التذكير بدرس بني إسرائيل: المشكلة ليست دائمًا في غياب البيان، بل في رفض الامتثال.

ثم يختم المقطع بتثبيت داخلي للأمة الجديدة: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾. فالاستقلال الحقيقي لا يثبت إلا بتحرير القلب من ضغط الخارج. والقبلة الجديدة ليست مجرد تحوّل في الصلاة، بل إعلان استقلالٍ نفسي وسياسي وروحي؛ استقلال في المرجعية، وفي الاتجاه، وفي القرار.

وهكذا يكتمل المشهد الانتقالي: من نقد تجربة أمةٍ سابقة، إلى تأسيس الامتداد العقدي لإبراهيم، إلى إعلان التحول العملي الذي يميز الأمة الجديدة. لم يكن تحويل القبلة حدثًا جزئيًا، بل لحظة ميلادٍ واضحة لهوية مستقلة، أمةٍ لها كتابها، ومرجعيتها، ووجهتها، ومسؤوليتها في الشهادة على الناس.

سادسًا: من العقيدة إلى التشريع... بناء الأمة من الداخل (151–179)

من إعلان الهوية إلى صناعة النفس

بعد أن استقرّت المرجعية، وتحددت القبلة، وأُعلنت هوية الأمة المستقلة، لم تنتقل السورة مباشرة إلى التفصيلات الكثيرة، بل بدأت أولًا ببناء الداخل؛ لأن الأمة لا تثبت بقرارٍ خارجي وحده، بل بثباتٍ داخلي في القلب والضمير.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. فوظيفة الرسالة ليست تعليم الأحكام فحسب، بل التزكية قبل كل شيء. فالعلم بلا تزكية قد يتحول إلى جدل، كما حدث في تاريخ الأمم السابقة. ولذلك جاء الأمر المباشر: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾. الذكر يربط القلب بالسماء، والشكر يحفظ النعمة من الزوال، والكفران بداية الانحراف.

ثم جاء التوجيه إلى الصبر والصلاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. فالهوية الجديدة ستُختبر، والاستقلال سيُواجه بالتحديات، ولا تثبيت إلا بالصبر، ولا توازن إلا بالصلاة. ثم جاءت آيات الابتلاء: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾**، ليُقرَّر أن طريق الاستخلاف ليس مفروشًا بالراحة، بل بالامتحان، وأن الثبات هو الفاصل بين الدعوى والحقيقة.

وبعد تثبيت الداخل الروحي، انتقل السياق إلى أول تشريعٍ يمسّ استقرار المجتمع: القصاص. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾. فالعدالة ليست شعارًا، بل نظامًا يحفظ الحياة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وهنا تتحول الهوية من فكرةٍ عقدية إلى نظام حياة منضبط؛ فلا تترك الدماء للثأر القبلي، ولا يُهدر الحق باسم العاطفة، بل يُقام العدل بميزانٍ إلهي.

بهذا المقطع يتأكد أن بناء الأمة يبدأ من الداخل: ذكرٌ وشكر، صبرٌ وثبات، ثم عدلٌ يحكم العلاقات. فالهوية التي أُعلنت في تحويل القبلة لا تكتمل إلا حين تتحول إلى تزكيةٍ في القلب، واستقامةٍ في السلوك، ونظامٍ في المجتمع.

سابعًا: الصيام: مدرسة التقوى (183–187)

صناعة التقوى وضبط الإرادة

بعد تثبيت الداخل بالذكر والشكر والصبر، جاءت فريضة الصيام لتبلغ عملية البناء ذروتها؛ لأن التقوى لا تُنشأ بالكلام، بل بالتدريب العملي. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. فالغرض المعلن واضح: **صناعة التقوى**. والصيام ليس مجرد امتناع عن الطعام والشراب، بل تمرين يومي على ضبط الشهوة، وكبح الرغبة، وتعويد النفس على تقديم أمر الله على داعي الجسد.

وجاء التعبير ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ليؤكد أن المشقة محدودة، لكن أثرها ممتد. فالتدريب المؤقت يصنع إرادةً دائمة، والامتناع عن الحلال في وقتٍ محدد يقوّي القدرة على ترك الحرام في كل وقت. ثم جاءت الرخصة للمريض والمسافر، ليُبيِّن أن التقوى لا تُبنى على التعذيب، بل على التوازن بين التكليف والرحمة، وأن الشريعة لا تُقصد بها المشقة لذاتها، بل تهذيب النفس.

وفي قلب أحكام الصيام جاءت آية القرب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. لم تأتِ بصيغة الأمر بالجواب، بل جاء الجواب مباشرًا، ليُشعر الصائم أن الجوع والعطش ليسا غاية، بل طريقًا إلى صفاء القلب والقرب من الله. فالتقوى ليست خوفًا مجرّدًا، بل حضورًا دائمًا لله في الوجدان.

ثم خُتمت الآيات ببيان حدود الله في العلاقة الزوجية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾. فالصيام مدرسة شاملة لضبط الحدود كلها، لا الطعام وحده. من تعلّم أن يترك ما يقدر عليه طاعةً لله، تعلّم أن يحفظ حدوده في سائر حياته.

بهذا المقطع يكتمل بناء الإرادة الداخلية؛ فبعد أن تُثبّت العقيدة، وأُقيم العدل، جاء الصيام ليصنع الإنسان القادر على الالتزام بما يعلم. فالاستخلاف لا يحمله جسدٌ قوي فقط، بل قلبٌ منضبط، وإرادةٌ تملك نفسها عند الشهوة.

ثامنًا: الحج: مشهد الأمة الواحدة (196–203)

العبادة الجامعة والعودة إلى الأصل

بعد أن بُني الداخل بالصبر والصيام، جاء الحج ليجمع بين العبادة الفردية والحركة الجماعية، وليعيد الأمة إلى أصلها الإبراهيمي في صورة عملية حية. قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. فالإتمام هنا ليس أداءً شكليًا، بل إخلاصًا كاملاً؛ فالحج ليس رحلة مكان، بل رحلة قصدٍ وولاء.

في الحج تذوب الفوارق، وتسقط الامتيازات، ويقف الناس بلباسٍ واحد في صعيدٍ واحد، ليُعلنوا أن الأصل هو العبودية، لا الانتماء القبلي ولا التفوق الاجتماعي. وكأن السورة تعيد الأمة إلى مشهد إبراهيم وهو يرفع القواعد، ليبقى البيت مركز الهوية، ومهوى الأفئدة، ومحل اجتماع القلوب.

ثم تُذكر المناسك، والذكر في أيامٍ معدودات، ليُربط العمل بالحضور القلبي: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾. فالحركة الكثيفة في الحج لا تُفقد المعنى، بل تُعمّقه؛ كل انتقالٍ ذكر، وكل نسكٍ خضوع، وكل اجتماعٍ إعلان وحدة.

ويُذكّر السياق بأن المقصود ليس الشكل، بل التقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. فالحج يربط بين مشهد الوقوف في عرفات ومشهد الوقوف بين يدي الله يوم القيامة. وكأن الأمة تتدرب على معنى الاجتماع والحساب، وعلى أن مركزها ليس في الأرض فقط، بل في وجهتها إلى الآخرة.

بهذا المقطع يعود المعنى إلى إبراهيم مرة أخرى، لكن بصورة جماعية؛ فالأمة التي بُني داخلها، وثُبتت هويتها، وضُبطت إرادتها، تجتمع الآن حول البيت الذي كان رمز التوحيد الأول. وهكذا يتكامل البناء بين العقيدة، والعبادة، والوحدة، لتتحول الهوية من تصورٍ نظري إلى حركة أمةٍ كاملة.

تاسعًا :آية الكرسي وخواتيم السورة ... قمة البناء العقدي..(286–285)/ (255)

ترسيخ العقيدة... وإعلان معادلة السمع والطاعة

عد هذا البناء العقدي والتشريعي الطويل، تعود السورة إلى تثبيت الأصل الأعظم: توحيد الله وتعظيمه. فجاءت آية الكرسي ذروة البيان في باب معرفة الله تعالى. وقد قرر أهل التفسير – كابن كثير وابن عاشور وغيرهما – أنها أعظم آية في كتاب الله، لما اشتملت عليه من أصول التوحيد وأسماء الله وصفاته؛ فهي تثبت وحدانيته المطلقة، وكمال حياته، وقيوميته على خلقه، وإحاطة علمه، وسعة ملكه، وانتفاء الشريك والندّ عنه. فهي آية جامعة لأصول الاعتقاد، ومؤسسة لمرجعية التشريع؛ إذ لا يُطاع على الإطلاق إلا من كان حيًا قيومًا، محيطًا بكل شيء علمًا.

ثم يأتي قوله تعالى:
﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾،
وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم لما نزلت هذه الآية شقّ عليهم ظاهرها، وخافوا أن يُؤاخذوا بما لا يملكون من خواطر النفس. فجاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق، وقد أُنزِلت عليك هذه الآية ولا نطيقها.

فأرشدهم النبي ﷺ – كما في الروايات الصحيحة – إلى أن يقولوا: **سمعنا وأطعنا**، غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما استقر التسليم في قلوبهم، ولم يعترضوا كما اعترض من قبلهم، أنزل الله التخفيف.

فنزلت الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة، وقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ أُعطيهما من كنزٍ تحت العرش، وفي ذلك تشريف عظيم له ولأمته. فافتتحتا بشهادة إلهية للنبي ﷺ والمؤمنين بالإيمان:
﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾،
وفي هذا ثناءٌ صريح عليهم، ومدحٌ لإيمانهم الشامل غير الانتقائي:
﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

ثم أعلنوا الكلمة الجامعة:
﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾،
فجاء ذلك مقابلًا لما حكاه القرآن عن بني إسرائيل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، كما نبّه عليه عدد من المفسرين في بيان المقابلة المنهجية بين الأمتين.

ثم جاء التخفيف الإلهي الصريح:
﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾،
وبيّن النبي ﷺ – كما في الصحيح – أن الله تجاوز لهذه الأمة عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم. فكان ذلك رفعًا للحرج، وتكريمًا لهذه الأمة، وتخفيفًا عنها، بخلاف ما فُرض على من قبلها من الآصار والأغلال.

وهكذا ختمت السورة بإعلان كمال التسليم، وشهادة الإيمان، والتخفيف بعد الامتحان؛ فاجتمع في الخاتمة توحيدٌ راسخ، وتسليمٌ صادق، ورحمةٌ واسعة، وكل ذلك ثابت بالنصوص الصحيحة وأقوال أهل العلم، لا مبنيًّا على استنباطٍ مجرد.

عاشرًا: الخاتمة: معالم الخريطة التشريعية في السورة

بعد استعراض أحكام الصلاة والصيام والحج وتحويل القبلة فيما سبق، فيما يلي بقية الأحكام الشرعية الواردة في سورة البقرة:

أحكام الأحوال الشخصية

1. الوصية عند الموت(180–182)
2. تحريم نكاح المشركات والمشركين(221)
3. أحكام المحيض(222) .
4. أحكام الإيلاء(226–227) .
5. الطلاق الرجعي(228) .
6. الخلع(229) .
7. عدد الطلقات والطلاق البائن(229–230) .
8. حقوق المطلقة وعدم الإضرار بها231–232) . ، 241)
9. عدة المتوفى عنها زوجها(234) .
10. التعريض بخطبة المعتدة(235) .
11. المهر قبل الدخول(236–237) .
12. أحكام الرضاع(233) .

أحكام المعاملات المالية

13. تحريم أكل أموال الناس بالباطل(188) .
14. أحكام الإنفاق215) . ، 261(274–
15. تحريم الربا(275–279) .
16. أحكام الدين والكتابة والشهادة(282) .
17. أحكام الرهن(283) .
18. كتمان الشهادة(283) .

أحكام الجنايات

19. القصاص في القتلى(178–179) .

أحكام السياسة الشرعية والجهاد

20. مشروعية القتال وضوابطه(190–193) .
21. القتال في الأشهر الحرم 194) . ، 217

أحكام اجتماعية عامة

22. أحكام الخمر والميسر(219) .
23. أحكام اليتامى(220) .

المراجع

1. القرآن الكريم – سورة البقرة.
2. د. رأفت المصري، *سورة البقرة .دستور الاستخلاف*
3. بن عاشور، *تفسير التحرير والتنوير*.
4. بن كثير، *تفسير القرآن العظيم*.
5. دروس ومحاضرات لأهل العلم والمشايخ.

DRAFT